المحاضرة الرابعة
التطور الدلالي

إن اللغات لا تسير في حياتنا على نحو من الصدفة المطلقة، بل تحكمها قوانين تكاد ترقى إلى مكانة القوانين الطبيعية ثباتًا وقوة. واللغة ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحوال، بالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئًا في بعض الأحيان، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور، ولكن سرعة الحركة والتغير فقط هي التي تختلف من فترة زمنية إلى أخرى، ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة.

تعريف التطور اللغوي:

تتعدد التعريفات التي قدمها علماء اللغة لمفهوم التطور اللغوي، فيرى فريق أن التطور هو الانتقال من طور إلى طور أحسن وأفضل. ويرى فريق آخر أن التطور هو الانتقال من الحسن إلى الأسوأ. وفريق ثالث يرى أن التطور نوع من الانحراف أو تغيير الذي لا يوصف بحسن، لكنه لم يصل إلى حد الخطأ. وهناك فريق رابع يرى أن التطور هو مجرد التغيير الذى ينتقل بالظاهرة اللغوية من طور إلى طور آخر.

ومن الملاحظ أن الرأي الأول فيه هدم لقواعد اللغة الثابتة المستقرة، وفتح الباب لكثير من الثغرات التي يتسرب منها الخطأ واللحن إلى نظام اللغة. والرأى الثاني فيه تجميد للغة، وتقييد لحركتها، وحكم عليها بالإعدام، والأخذ بهذا القول بعيد عن طبيعة اللغة، وحركتها في الاستعمال. والرأى الثالث فيه إصدار حكم سابق على شيء لم تتحدد اتجاهاته بعد. والرأى الرابع رأى يقوم على فهم واقعي لطبيعة اللغة، ولسنة التطور الذي يصيبها، والتطور حسب هذا المفهوم عملية مستمرة، وهو يحدث في كل مستويات اللغة، ويصيب معظم عناصرها.

عوامل التغير الدلالي:

أولًا: الحاجة:

إن عامل الحاجة يكاد يقف وراء جميع أنواع التغير الدلالي، واتجاهاته، ووسائله، فلولا حاجة المجتمع العربي الحديث مثلًا إلى الدلالة على المستحدثات، والمخترعات، والأفكار والمذاهب، وجميع الأمور الحديثة ما كان قد لجأ إلى هذه الثروة اللفظية من المشتقات والمعرّبات، والمنحوتات، وما كان قد

لجأ إلى التغيير والتطوير في دلالات كثير من الألفاظ القديمة؛ ليجعلها وافية للتعبير عن متطلبات الحضارة المعاصرة.

والمراد بمفهوم (الحاجة) أن يكون المجتمع، أو الجماعة اللغوية مضطرة إلى العثور على استعمال لغوي يلبى مطلبًا جديدًا، أو يعبر عن معنى جديد، أو يسمِّى ظاهرة جديدة، أو يشير إلى فكرة طرأت على استعمالات هذه الجماعة اللغوية.

ويمكن تلبية هذه الحاجة إلى استحداث كلمات جديدة بعدة طرق، منها:

1. إحياء بعض الألفاظ القديمة ذات الدلالات المندثرة، وإطلاقها على المستحدثات.
2. ابتكار كلمات جديدة.
3. صياغة كلمات جديدة من الكلمات القديمة.
4. اقتراض كلمات من لغة أخرى.
5. تغيير معانى الكلمات الموجودة بالفعل.

ومن الكلمات التي تغيرت دلالتها بدافع الحاجة: المدفع، والقنبلة، والدبابة، واللغم، والطيارة، والطراد، والسيارة، والبريد، والقاطرة، والقطار، والثلاجة، والسخان، والمذياع، والذبذبات والتسجيل، والجرائد والصحف، والمجلات، والمحافظ، والأقسام والمرور... إلخ.

ثانيًا: الاستعمال المجازي:

يُستعمل اللفظ إما حقيقة وإما مجازًا، والحقيقة **إما لغوية**، وهى استعمال اللفظ فيما وضع له في اللغة، كالأسد للحيوان المفترس، **وإما شرعية**، وهى استعمال اللفظ فيما وضع له في الشرع كالصلاة للأقوال والأفعال المعهودة في العبادة المخصوصة، **وإما عرفية خاصة** كاستعمال اللفظ في معنى عرفي خاص كالمصطلحات التي يستعملها المتخصصون في كل علم من العلوم، كالرفع والنصب والجر عند النحويين، **وإما عرفية عامة** كاستعمال اللفظ في معنى عرفى عام كاستعمال لفظ دابة على ذوات الأربع بعد أن أطلق في أصل وضعه على كل ما يدب على الأرض، هذا عن الحقيقة، أما عن المجاز فهو انتقال اللفظ من جهة الحقيقة إلى غيرها.

يفهم مما سبق أن الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له، أي استعمال اللفظ في معناه الذى وضع له. وأما المجاز فهو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له مع قرينة مانعة، أي استعمال اللفظ في غير المعنى الموضوع له مع

قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي.

والألفاظ المستعملة في دلالاتها الحقيقية قد يعرض لها التغير الدلالي دون نقلها إلى المجاز، بل تبقى مستعملة حقيقة على الرغم مما أصابها من تغير، وهي التي يحدث فيها تضييق للمعنى أو تخصيص للدلالة، أو يحدث فيها توسيع المعنى، أو تعميم الدلالة. أما المجاز فتكثر نماذجه في الأمثلة التي تخضع لانتقال الدلالة، وهذا كثير في العربية المعاصرة.

فالمجاز: كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول.

وهذا التعريف يوضح أن المجاز يقتضى أربعة عناصر: المعنى الأصلى المنقول منه، والمعنى المنقول إليه، والكلمة التي تنتقل من هذا إلى ذلك، ثم العلاقة التي بين المعنى الأول والثانى.

وقد قسم العلماء المجاز إلى قسمين بحسب العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي:

1-استعارة إذا كانت العلاقة بين المعنيين هي المشابهة.

2-مجاز مرسل، إذا كانت العلاقة بين المعنيين لغير المشابهة.

المجاز الاستعاري: وهو نقل مجال الدلالة لعلاقة المشابهة بين المدلولين، ويتم ذلك بما اصطلح على تسميته (الاستعارة)، ومن أمثلة ذلك:

1-استعارة من جسم الإنسان إلى الجماد، مثل: مرفق، ساعد، حلق.

2-استعارة من الحي إلى الجماد، ومنه: عقرب، الأعور.

3-استعارة من الجماد إلى الجماد، ومنه: الإبرة، العربة.

4-استعارة من الجماد إلى الحي، ومنه: البربخ، الجيب، الدهليز.

5-استعارة من المعنوى إلى المحسوس، ومنه: الأزمة، الأوج.

المجاز المرسل: وهو نقل مجال الدلالة لعلاقة مجازية أخرى غير المشابهة بين المدلولين، وعلاقاته كثيرة، أذكر منها:

1-علاقة السببية: وتظهر في الألفاظ التي تطورت فيها الدلالة عندما أطلق السبب، وأريد المسبب عنه. ومن أمثلة ذلك الفعل (فشل) وما اشتق منه اشتقاقًا معاصرًا؛ فالدلالة القديمة تعنى: الكسل، والتراخى، والجبن، والضعف، وهذه المعانى كلها سبب في الدلالة الحديثة التي تعني: الخيبة، والرسوب، وعدم النجاح. ومن ذلك أيضًا (العَمَالَة) التي تدل الآن على: العمل،

والعمال، بينما كانت تدل على: أجر العمل؛ فالعمل هو السبب في الأجر، والأصل في استحقاقه.

2-علاقة المسببية: وتظهر في الألفاظ التي تطورت دلالتها بإطلاق المسبب، وإرادة السبب مثل: (نُوَام)، كانت تطلق على: السُّبات الكثير الذي يصيب الإنسان لسبب معين، والآن أصبحت تطلق على: مرض يصيب الإنسان فينام بسببه كثيرًا، فأطلق كثرة النوم على المرض.

3-علاقة المحلية: وتظهر في الألفاظ التي تتطور دلالتها من الإشارة إلى المحل إلى الدلالة على الحال: مثل (الصملاخ)، إذ كانت تعنى: صماخ الأذن، ويقصد بها قناة الأذن، وهذا محل، وهي الآن بمعنى: إفراز طبيعي للأذن، فأصبحت العلاقة محلية.

ثالثًا: تغير المدلول:

يبقى اللفظ كما هو دالا على المعنى القديم، ويظل مستعملا في الإشارة إليه، ولكن هذا المعنى القديم نفسه يحدث له تغير في الشكل، أو في الوظيفة، أو فيهما معًا.

ومثال ذلك لفظ (سفينة) الذى تطور مدلوله في الشكل (حديد وصاج) بدلًا من (خشب وقار)، وصارت تسير بالبنزين والسولار بدلًا من قوة الريح أو تيار الماء، وتطور في الوظيفة كذلك، إذ تعددت وظائف السفينة في العصر الحديث كثيرًا.

ويظهر أثر هذا العامل في الألفاظ الدالة على كثير من الآلات الحديثة ومنها: الطائرة، السيارة، القطار، السفينة، البراية، الثلاجة، المروحة... إلخ، بل إننا نلحظه مؤثرًا في ألفاظ خارج مجال المصنوعات والمخترعات، مثل: محطة، تصدير، استيراد، المضيف والمضيفة... إلخ.

رابعًا: التطور الحضاري:

يتضمن هذا العامل عدة عوامل فرعية، منها: السياسي، والاجتماعي والاقتصادي، والثقافي، أو الفكري، ويكاد يكون هو الوجه الآخر للعاملين الأساسيين الكبيريين: الحاجة، والاستعمال، ومن الألفاظ التي تغيرت دلالاتها نتيجة هذا العامل: المراسل، المخابرة، ابتكر، البؤرة، الكتلة، التخطيط، الملجأ، الجامعة، التيار، اللحن... إلخ.

خامسًا: الترجمة:

قد ينشأ بعض اللبس عند الحديث عن الترجمة كعامل من عوامل التطور الدلالي، والحديث عن الاقتراض أو التعريب كعامل آخر من عوامل التغير اللغوي، لكن الفرق بينهما يتضح

من مقارنة اللفظين المحدثين: هاتف وتليفون، أو: برق وتلغراف، أو: دراجة وبسكليت، أو: مذياع وراديو... إلخ.

إذن يراد بالترجمة: استعمال لفظ عربي حديث، أو قديم متضمنًا دلالة حديثة قد عبر عنها لفظ أجنبي.

فالألفاظ الأولى من المجموعات السابقة تعد ترجمة للألفاظ الثانية من نفس المجموعات أو الثنائيات، والألفاظ الأولى كذلك مستعملة في دلالات محدثة لم تعرفها العربية من قبل على الرغم من معرفتها استعمال تلك الألفاظ قبل العصر الحديث، ولكن في الإشارة إلى دلالات أخرى قديمة غير الدلالات المحدثة للمقابلة للألفاظ الأجنبية: (تليفون، تلغراف، بسكليت، راديو).

اتجاهات التغير الدلالي:

ويمكن أن يُطلق عليها عدة مصطلحات أخرى مثل: أعراض التغير الدلالي، وأنواع التغير الدلالي، ومظاهر التغير الدلالي، وأشكال التغير الدلالي... إلخ. ويجمع الباحثون في نشأة الدلالة وتغيرها على أنها بدأت بالمحسوسات ثم تطورت إلى الدلالات المجردة؛ بتطور العقل الإنساني ورقيه، فكلما ارتقى التفكير العقلي جنح إلى استخراج الدلالات المجردة وتوليدها، والاعتماد عليها في الاستعمال.

وتتمثل اتجاهات التغير الدلالي فيما يلي:

1. **تخصيص الدلالة:**

تخصيص الدلالة يعني: تحويل الدلالة من المعنى الكلي إلى المعنى الجزئي، أو تضييق مجالها.

ومن العوامل التي تدفع نحو تخصيص الدلالة عامل الحاجة، ولاسيما الحاجة العلمية التي تهتم بالدلالة الخاصة للفظة فتحصرها فيها ومن ثم تسد الحاجات العلمية التي تبرز في الميادين العلمية والعملية.

ومن الأمثلة على ذلك لفظ (المندوب)، فدلالته القديمة: الرسول، ودلالته الحديثة: من ينوب في العمل عن مجلس، أو هيئة.

2. **تعميم الدلالة:**

هذا الاتجاه أقل شيوعًا في اللغات، وأقل أثرًا في تطور الدلالات وتغيرها، ويشبه تعميم الدلالات ما نلحظه لدى الأطفال، حيث يطلقون اسم الشيء على كل ما يشبهه لأدنى ملابسة، أو مماثلة؛ وذلك لقصور محصولهم اللغوي، وقلة

تجاربهم مع الألفاظ.

ومن الأمثلة على ذلك كلمة (البأس) التي كانت خاصة بالحرب، ثم أُطلقت على كل شدة، وكلمة (الورد) حين تطلق على كل زهر.

3. نقل الدلالة:

ويكون الانتقال عندما يتعادل المعنيان، أو إذا كانا لا يختلفان من جهة العموم والخصوص، كما في حالة انتقال الكلمة من المحل إلى الحال، أو من السبب إلى المسبب، أو من العلامة الدالة إلى الشيء المدلول عليه.

ومن أمثلة ذلك لفظي (الشنب) (والسفرة).

4. رقي الدلالة:

وهو أن يرقى معنى الكلمة بحيث يصبح دالًا على معنى أرقى مما كان يدل عليه من قبل، فكما قد تنحط الدلالة في الألفاظ قد تقوى ألفاظ أخرى، غير أن ضعف الدلالة، أو انحطاطها أكثر ذيوعًا في اللغات بوجه عام.

ومن الأمثلة التي تطورت دلالتها في اتجاه الرقي لفظ (الصحفي)، فدلالته القديمة: من يأخذ العلم من الصحيفة لا من الأستاذ، ودلالته الحديثة: من يزوال حرفة الصحافة. وكانت نظرة القدماء إلى الذي يأخذ العلم من الصحيفة أنه غير جيد؛ لأنه يخطئ ولا يجد أستاذًا يصحح له ما أخذه، وقد عَدُّوا ذلك عيبًا. أما الآن فالكلمة صارت دالة على الصحفيين وأصحاب الأقلام من أهل السلطة الرابعة، واتجهت نحو الرقي في الدلالة.

ويتحكم في الحكم على رقي المعنى عدة معايير، منها:

1-**المعيار اللغوي**: الذي يظهر في استعمال بعض الألفاظ في سياقات ترتفع بالدلالة أكثر مما كانت عليه، مثل كلمة (عدوى) في تراكيب منها: عدوى الديكور، وعدوى الالتزام، وعدوى التفوق.

2-**المعيار الاجتماعي**: ويظهر ذلك في تغيير نظرة المجتمع إلى دلالة بعض الألفاظ، مثل (النحافة)، الذي تشير دلالته الأولى إلى معنى: الضعف، والهزال، وصار يشير إلى: الرشاقة واعتدال القوام.

3-**المعيار الأدبي**: الذي يحول النظرة إلى دلالة اللفظ من جانب الانحطاط إلى جانب الرقي، ويتضح ذلك في دلالة ألفاظ مثل: الشطار، مفردها شاطر، والشقي، فقد كانت دلالة

(الشاطر، الشطار) تشير إلى: القاتل، وقاطع الطريق، والمجرم، ثم صارت تشير إلى: الظريف، خفيف الظل، الماهر البارع.

5. انحطاط الدلالة:

يسير هذا الاتجاه من التغير الدلالي رقي الدلالة، حيث يتجه التغير بدلالة اللفظ من الدلالة الراقية، إلى الدلالة التي تقل عنها، أو تنحط عنها من حيث الاعتبارات التي يضيفها المجتمع على اللغة واستعمالاتها.

ومن الأمثلة الدالة على هذا الاتجاه كلمة (الجراثيم) التي كانت تطلق على: الشيء الحسي الصغير الذي تذروه الرياح، وأصبحت تطلق على: الشيء الدقيق جدا الذي يرى بالمجهر ويسبب الآفات والأمراض.

ويتحكم في الحكم على انحطاط المعنى عدة معايير، منها:

1-**المعيار اللغوي:** كأن يكون معنى اللفظ في الأصل محببًا، أو راقيًا، أو دالًا على شيء جيد، ثم يتحول إلى الدلالة على شيء كريه، أو منحط، أو شيء سيئ، ومن ذلك ألفاظ مثل (الاستعمار، الاستغلال) حيث يشير المعنى الأصلي إلى: التعمير وإصلاح الأرض البور، ورزاعتها، ثم استخراج غلتها وثمارها، أما المعنى الحالي فيشير اللفظ الأول إلى الضد تمامًا، أي إلى: التخريب، والنهب، ويشير اللفظ الثاني إلى: السرقة والابتزاز والتسلط.

2-**المعيار الأدبي**: كأن تكون دلالة اللفظ من الوجهة الأدبية أسمي وأرقى في القديم، ثم يطرأ عليها تغير نحو الانحطاط في الدلالة المعاصرة التي يشير إليها اللفظ، مثل (حكيمة) التي تعنى الآن: مساعدة الطبيب أو الممرضة، بعد أن كانت تعني: الخبيرة، أو العليمة المدبرة.

3-**المعيار الاجتماعي**: ويظهر ذلك في لفظ (الساعي) الذي كان يشير إلى: الرجل الذي يتحمل مغارم قومه، ثم صار يشير إلى: وظيفة الخادم، أو العامل، بالمفهوم الوظيفي الحكومي الآن، وهي أدنى وظيفة يشغلها الإنسان في سلك الوظائف القضائية.

4-**المعيار الأخلاقي**: ويتضح ذلك في دلالة ألفاظ مثل (صديق) بمعنى: عشيق الزوجة ترجمة الاصطلاح (Boy Friend)، ومن أمثلة ذلك أيضا كلمة (دبوس) فيطلق في القديم على: آلة قوية كانت تستخدم في الحروب، أو هي عبارة عن عمود على شكل هراوة مدملكة الرأس، بينما يطلق في

الحديث على: أداة من معدن على هيئة المسمار الصغير.